# الفصل الأول

## سيرة المكان

## موطن الدعوة. . . المنطلق والخصوصية

- بين الحضارة والبداوة
- أزمة الوجود والمآل

## بين الحضارة والبداوة

جزيرة العرب قبل الإسلام،لم يختلف رأي على طبيعتها المقفرة وسعتها الخاملة المعزولة عن أي إسهام حضاري أو ملمح مدني برغم متاخمتها لمواطن الحضارة الإنسانية في العالم القديم، حضارة الفرس والروم وحضارة اليمن وغيرها؛ وانطلاقاً من هذه الفكرة راح الباحثون قديماً وحديثاً، شرقاً وغرباً يؤكدون خلو العقلية العربية من إنتاجٍ فكري ذي بال،وربما نفوا عن هذه العقلية مجرد الاستعداد للتحضر ،إذ" غلبت على العرب البداوة وعاش أكثرهم عيشة قبائل رُحّل لا يقرون ولا يتصلون بالأرض التي يسكنونها اتصالاً وثيقاً كما يفعل الزرّاع،بل هم يتربصون مواسم الغيث،فيخرجون كل ما لهم من نساء وإبل يطلبون المرعى، لا يبذلون جهداً عقلياً في تنظيم بيئتهم الطبيعية كما يفعل أهل الحضر، إنهم يعتمدون على ما تفعل الأرض والسماء فإن أمطروا رعوا،وإلا ارتقبوا القدر، وليس هذا النوع من المعيشة بالذي يرقى قومه ويسلمهم إلى الحضارة، وإنما يُسلم إلى الحضارة عيشةُ القرار واستخدام العقل في تنظيم أمور الحياة" (1).

وبالنظر إلى العرب بين الأمم رأى البعض أنه" لم تزل الأمم كلها من الأعاجم في كل شق من الأرض لها ملوك تحميها ومدائن تضمها،وأحكام تدين بها وفلسفة تنتجها،وبدائع تفتقها في الأدوات والصناعات،مثل صناعة الديباج ولعب الشطرنج ،ورمانة القبان، ومثل فلسفة الروح في ذات الخلق والقانون والاصطرلاب، ولم يكن للعرب ملك يجمع سوادها ويضم قواصيها ويقمع ظالمها وينهى سفيهها، ولم يكن لهم قط نتيجة في

صناعة ولا أثر في فلسفة،إلا ما كان من الشعر وقد شاركتهم فيه الأعاجم"(2) .

وفي السياق نفس رأى بن خلدون "أن العرب أبعد الناس عن الصنائع؛ لأنهم أعرق في البدو،أبعد عن العمران الحضري وما يدعو إليه من الصنائع وغيرها،وهم أبعد الناس عن العلوم لأن العلوم ذات ملكات، محتاجة إلى التعليم،فاندرجت في جملة الصنائع، والعرب أبعد الناس عنها،فصارت العلوم لذلك حضرية، وبعد العرب عنها وعن سوقها، والحضر لذلك العهد هم العجم أو مَن في معناهم من الموالي"(3) .

تجذّرت هذه الفكرة عن العرب في جزيرتهم قبل الإسلام واستُخدمت بوجوهٍ شتّى، فحيناً تكون مُنطلقاً لمواجهة المد العربى مع حركة الفتوحات الإسلامية وتسيُّدهم لرقاعٍ عديدة من العالم آنذاك، حيث تولّد شعور من الحقد على العرب من الأجناس التي حكموها سواء بفعل ممارساتٍ لبعض الحكام ميزوا فيها العرب على حساب غيرهم، أو بفعل الصدمة التي حدثت بانقياد أممٍ لها حضارتها وعظمتها أمام العرب،وحيناً آخر تكون فكرة بداوة الجزيرة العربية نابعةً من وجهة نظر علمية ترصد أحوال العرب وطباعهم.

وفي أيامنا الحاضرة نجد اتجاهاً آخر في قراءة التاريخ العربى حينما يحاول بعض الباحثين تفسير ما مر به العالم العربي من كبوات جعلته يتأخر عن ركاب الحضارة الإنسانية، فيجزم بأن هذا التأخر مرده إلى سيادة مفردات البداوة العربية التي جاءت مع الفتح الإسلامي،وجردت– مثلاً– بلداً مثل مصرمن منجزات الحضارة الزراعية، وللأسف الشديد

يكون ذلك الأمر هجوماً عاماًعلى الإسلام، بوصفه قادمًا من الجزيرة العربية(4) .

ونجد آخراً في السياق نفسه وإن تغلّف رأيه برؤية أدبية، حينما يهاجم التراث العربي والإسلامي بدعوى الخروج من إساره والسير نحو التجديد، فلا يخلو حديثه من تعليقٍ على البداوة العربية وتأثيرها السلبي في المصريين(5) .

على أي حال وبغض النظر عن دوافع رسوخ هذه الفكرة وبرغم شواهد التاريخ التي ربما تدفع لقبولها،إلا إن الأمر يحتاج لمناقشة إذ أن العرب على بداوتهم إلا إنهم يختلفون كثيراً عن أقوامٍ عُرفت بداوتهم وقسوة طباعهم ، فلا ينطبق عليهم ذلك المفهوم المطلق للبداوة،فهم ليسوا كالمغول أو الأتراك أو البربر، وتحديداًحينما نتحدث عن العرب في البيئة التي أفرزت الدعوة إلى الإسلام في مكة والمدينة فقراءةٌ يسيرة ربما تجعلنا نعيد النظر مرة أخرى في تحليل هذه المسألة، وبدايةً نعرض لاتجاهات ثلاثة ترتكن على فكرة بداوة العرب، وتمعن في الأخذ بها في سياق التاريخ الإسلامي وأول هذه الاتجاهات اتجاه يجعل من بداوة العرب ركيزةً في تجريدهم – العرب –من المنجز الحضارى الكبير في إطار الحضارة الإسلامية، وهو اتجاهٌ قديم حديث،حيث النظرة الدونية والكبرياء التي تمنع صاحبها من الاعتراف بالفضل للآخر، وأصحاب هذا الاتجاه قديماً كانوا من الأجناس التي صعب عليها قبول الأمر بالانقياد تحت إمرة العرب الفاتحين وحاملي راية الدين الجديد بكل دلالاته العقدية والثقافية والمنفتحة على كل ما ينفع البشرية في دنياها وأُخراها،وفي العصر الحديث تجلّى ذلك الاتجاه لدى المستشرقين وذوي الميول العلمية غير المحايدة

والمتحاملة على الثقافة العربية والإسلامية، بالإضافة إلى العديد من الكتاب والباحثين العرب الذين صُدموا بالفارق الرهيب بين الحضارة الغربية الحديثة وبين واقع العالم العربي والإسلامي المتراجع،وغاب عن هؤلاء ما يزدحم به التاريخ من أحداثٍ ووقائع وممارسات في مختلف أوجه النشاط الإنساني، صاغ العرب خلالها أروع ما يمكن تقديمه في ركاب الحضارة الإنسانية، تحت قيادتهم وبتنظيمٍ منهم وبمشاركة فاعلة وفعّالة في مختلف مفردات التحضُّر والتمدين، غاب عن هؤلاء أجناسٌ عديدة غلبت عليهم الغلظة والبداوة والبعد عن أي ملمح حضارى، تحولوا تحت قيادة العرب إلى ساسة وقوّاد وشعراء وعلماء في شتى أصقاع المعمورة في بربر شمال أفريقيا وأتراك وسط آسيا والمغول والتتار وغيرهم، هالهم ذلك الطوفان النوراني الذي حمل العرب مشاعله في مطلع تاريخ الإسلام، ولا يُفْهَمُ من هذا الكلام أنّ الباحث يسعى للدفاع عن العرب،وإنما الأمر مناقشة فكرية لرؤية الكُتّاب للتاريخ وآثاره،حيث لنا أن نتساءل كيف حافظ العرب على منجزات الحضارات الأخرى حينما توفرت لهم قيادتها والتحكم فيها، ليست المحافظة فقط بل الإضافة والإبداع والابتكار ،ومتون التاريخ ووثائقه هنا تشهد بذلك وتؤكده في العراق والأندلس ومصر والشام ومختلف بقاع العالم الاسلامي التي أدار العرب منظومة الحضارة فيها بحنكة واقتدار أذهلاً العالم، كما أنّ التاريخ الإسلامي في حقبه المزدهرة كانت صيغته عربية، وظلت مزدهرة تحت القيادة العربية في العصر الأموي والعباسي الأول وطوال تاريخ الأندلس قبل الاسترداد.

وحين كانت قيادة العالم الإسلامي تحت أجناس أخرى كالأتراك مثلاً، نجد أن الملمح الأكثر بروزاًهو الملمح العسكري على حساب آليات الحضارة الأخرى.

من هنا تَفْرُغ فكرة بداوة الجزيرة العربية من محتواها لدى هذا الاتجاه،إذ لم تؤتِ ما استهدفه منها مثيروها، وافتقدت العلاقة بينها كمقدمة وبين ما تصوروه نتيجة عنها من تجريد العرب من إسهامهم في الحضارة الإسلامية،فتكون الفكرة في غيرمسارها الصحيح.

الاتجاهالثاني يقدم أصحابه رؤية تتوخى النظر العلمي في بنية الجزيرة العربية الجغرافية والاجتماعية والثقافية، ويعتمدون في ذلك على الطبيعة الصحراوية الواضحة في جزيرة العرب ومدى تأثيرها على الإنتاج الذهنى حيث لا توجد الإمكانيات التي تزكى هذا الإنتاج وتثريه، أصحاب هذا الاتجاه أيضاً وقعوا في هوة التعميم الذي يأباه البحث العلمي وأدواته .

فبرغم الدلالات الصارخة والمرتبطة ببساطة الحياة في الجزيرة العربية إلا إنها – جزيرة العرب – لم تكن كلها ذلك الفقر المدقع من أي إمكانات، فهناك حضارات اليمن في الجنوب وتاريخها وأثارها لا يغفلهما عقلٌ أو نظرٌ ثاقب، كما كانت في الشمال إمارات الغساسنة التي اتصلت اتصالاً وثيقاً بحضارة بلاد الشام وحضارات الروم ومن قبلهم اليونانيين بتراثهم العريق، ومن الشرق وُجِدت إمارة الحيرة وحكامها من المناذرة واقترابهم اللصيق بالحضارة الفارسية، مما يقطع بخطأ التعميم في بداوة جزيرة العرب التي تأثرت بتلك المدنيات والحضارات المتاخمة لها،بل إنّ عرب الحيرة والغساسنة كانوا وجهةً لشعراء العرب يمتدحونهم ويخطبون ودهم ويفتخرون بهم وبملكهم وبعزهم،ولم يكن سكان الحجاز وغيرها من بقاع

الجزيرة العربية بمعزلٍ عن المدنيات المتاخمة لهم بشكل كامل، وإنما تسربت إليهم المدنية عبر التجارةوعبر التواجد المسيحيواليهودي في الجزيرة العربية، حيث" لم يصل إلى أحدٍ خبرٌ من أخبار العرب والعجم إلا من العرب؛ وذلك لأنّ من سكن مكة أحاط بعلم العرب العاربة وأخبار أهل الكتاب ، وكانوا يدخلون البلاد للتجارة فيعرفون أخبار الناس، وكذلك من سكن الحيرة وجاور الأعاجم عَلِمَ حِمْيَرَ وسِيَرَهَا في البلاد، وكذلك من سكن الشام خبر بأخبار الروم وبني إسرائيل واليونان، ومن وقع بالبحرين وعمان فمنه أتت أخبار السند وفارس، ومَن سكن اليمن عَلم أخبار الأمم جميعاً لأنه كان في ظل الملوك السَّيَّارَة(6) .

كما أن ابن خلدون الذي أجزم ببعد العرب عن أي صناعة أو علم، رأى أنهم "أسرع الناس قبولاً للحق والهدى، لسلامة طباعهم من عوج الملكات، وبراءتها من ذميم الأخلاق إلا ما كان من خلق التوحش القريب المعاناة،المتهيئ لقبول الخير، وهم أقرب إلى الشجاعة لأنهم قائمون بالمدافعة عن أنفسهم، لا يكِلونها إلى سواهم ،ولا يثقون فيها بغيرهم فهم دائماً يحملون السلاح،ويتلفتون عن كل جانب في الطرق، قد صار لهم البأس خلقاً والشجاعة سجية، ونجد المتوحشين من العرب أشد بأساً ممن تأخذه الأحكام،وهم لايزالون موسومين بين الأمم بالبيان في الكلام، والفصاحة في النطق، والذلاقة في اللسان، والبيان سمتهم بين الأمم منذ كانوا(7) .

إن التخلف الحضاري للعرب قبل الإسلام لا ينفي عنهم الفطرة السليمة والعزيمة الماضية، وبذلك هم أقرب لحاقاً بالحضارة وأكثر استعداداً لصناعتها من أولئك الذين أُتخمت مدنياتهم بالأساطير والأوهام،

فسلبية بداوتهم ربما انطوت على إيجابيات النقاء ومن ثمَّ التوثب للإنجاز والتحضُّر، والتخلي عن أدران الجهل الثقافي والعقدي. كما أن البيئة التي أنطلقت منها دعوة خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم في مكة والمدينة يصعب انطباق القول عليهما فيما يخص البداوة والغلظة المطلقة فالمدينتان – مكة والمدينة – تأسّس فيهما مجتمعان قاما على ركيزتين من أهم ركائز المدنية وهما التجارة في مكة والزراعة في المدينة،إن تحكم مكة في طرق التجارة كما هو معروف تاريخيًا أوجد الثروة ورأس المال الذي توفر لدى كبار قبائل ورجال مكة، أضف إليه وجود البيت الحرام ورعاية قريش له، مما أوجد نوعاً من المركزية الدينية ,وجعلها محل استقطاب الناس من الحجاج وقُصَّاد البيت الحرام ، التجارة بدلالاتها الواسعة على الاحتكاك بالثقافات والأديان لها عظيم الأثر في الحراك الاجتماعي لسكان مكة الذين تنامى حِسُّهم الذاتى بنوعٍ من القومية والتحضر، فلم يتركوا أنفسهم للنزق القبلي بشكل دائم بفعل تجارتهم وتمركزهم حول الحرم وموقعهم الحيوي في جزيرة العرب فكان قمة ذلك التنامي حلف الفضول أو حلف الطيبين وهو إيلاف تجاري سياسي روعي فيه تنظيم علاقات مكة بالقبائل العربية،وبالدول الكبرى وفق مبادئ عامة تقترب من الصيغ القانونية والسياسية(8) .

كما أن هناك حدث مهم في تاريخ القبائل العربية كان الأول من نوعه في خروج تعبيرٍ قومي بين العرب وهو ذلك الحدث المعروف بـ(يوم ذي قار)حينما وقعت معركة بين بني شيبان من قبيلة بكر بن وائل وبين إحدى الكتائب الفارسية بذي قار بسواد العراق في عام 610م تقريباً، حيث أوجد انتصار الشيبانيين على الفرس إحساساً عربياُ عاماًيتجاوز بشكلٍ ما

حدود الانتماء القبلي، يوم ذي قار الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أُثِر عنه " أَوَّلُ يَوْمٍ انْتَصَفَتْ فِيْهِ العَرَبُ مِنَ العَجَمِ، وبِىْ نُصِرُوْا"

لأجل ذلك كانت رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم في بيئة قبلية تسعى إلى نوعٍ من الوحدة الثقافية والتجارية وتوحيد الصفوف في مواجهة الأعداء من قوى الفرس والروم، وأصبحت الدعوة المحمدية إيذاناً بقفزةٍ نوعية سعت إلى إحلال الأمة محل التحالفات القبلية والتجارية العابرة(9)

.

أما المدينة المنورة أو يثرب فقد عُرِفت بواحاتها ومزارعها وحدائقها واستقرار أهلها من قبيلتى الأوس والخزرج واليهود، حيث أدى هذا الاستقرار والتنوع البشرى فيها إلى أن تأخذ اتجاه تأسيس المملكة وكان ذلك قبيل هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم. إذن نخلص من ذلك القول إلى أن المدنية عَرفت طريقها إلى موطن ومُنطلق دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن كانت مدنيةً غير مكتملة تُنبئ بتحول مُنتظر وفقاً لهذه الآليات .

الاتجاه الثالث فيما يخص بداوة الجزيرة العربية، يغلب عليه الطابع اليوتوبي الطوباوي الحالم، حيث ينطلق أصحاب هذا الاتجاه من بداوة العرب إلى نتيجة تؤكد عظم الإنجاز في دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم، حيث يفترض هؤلاء أن الطبيعة البدوية للعرب وخلو بيئتهم من ملامح الحضارة، كفيل بأن يجعل كل داعٍ إلى الحق أو صاحب فكرة أو نظرية أو حتى فن من الفنون أن يذهب أدراج الرياح ويغيب أثره بانقضاء الزمن اليسير المصاحب لظهوره، لكنهم يرون أن "الأمر مختلف أشد الاختلاف ومحصل النظر يجيء بما لم يقع في التقدير والحسبان حين

يستقبل الإنسان بنظره مطلع النبوة في الصحراء العربية..... هناك نجد الداعي على غير ما عرف الناس من الدعاة، وهناك نجد الصحراء وساكني الصحراء على غير ما عُرفت الحياة من الصحارى وساكني الصحارى ومن ثمَّ كان هذا الحصول الموفور من معطيات الخير وثمراته،فيما غرس الداعي من غراس، وفيما أخرجت الأرض من طيبات وفيما حصَّل الناس من خير، وفيما بلغوا من كمال.....كلٌّ ذلك قد جاء على أتم وأكمل ما قدر للبشرية في هذه الحياة من تمام وكمال"(10)

اللغة الحالمة هنا واضحة جليَّة،وهي تبرر خطأ الاستدلال والاستنتاج القائم على بداوة العرب وجفاف صحاريهم، إذ ذلك يبعث على سؤالٍ مهم:هل هناك ارتباط مطلق بين البداوة وبين ذهاب آثار الفكر والعقل إن وُجِدا وتسيَّدا؟وهل هناك ارتباط مطلق بين التحضر وبين رسوخ الدعوة ومحتواها؟

الإجابة يقدرها لنا التاريخ، فالثلاثة وعشرين عاماً التي قضاها رسول الله صلى الله عليه وسلم في تثبيت دعوته في الجزيرة العربية أقل بكثير من الزمان الذي استغرقة خلفاؤه وتابعوهم وتابعوا تابعيهم في تثبيت أركان الإسلام في أمم لها رسوخها الحضاري في بلاد فارس والأندلس وغيرها، حتى إن كان هناك استقرار سياسي وعسكري، فاستقرار الإسلام في قلوب الناس أخذ وقتاً وجهداً عند أولئك الموصوفين بالتحضر والمدنية، مما يجعلنا نرفض الربط بين توقع ذهاب أثر الدعوة وبين الطبيعة البدوية للعرب، ثم نبني على ذلك أن إيمان العرب ورسوخ الدعوة فيهم كان من المفارقات التاريخية غير المتوقعة "نبي أمي...وقوم أميون وأرض مجدبة ...وحياة غليظة جافية ومع ذلك فإنه من كل هذه الأميات مجتمعات تلد

الحياة أكرم مواليدها، وتُخْرج من الناس أطيب ثمراتها، فتفجر ينابيع الحكمة من فم هذا النبى الأمي ، وتقع في عقول الناس وفي قلوبهم موقع الماء العذب في الأرض القفر،فإذاالناس غير الناس وإذا الحياة غير الحياة...وإذا أعراب البادية ورعاة الإبل شامة في الناس وأساتذةٌ في العلم وساسةٌ للأمم، وإذا هذا البلدالقفر مطلع النور ومشرق الهدى، ومهوى الأفئدة وقبلة أنظار العالم وموضع اهتمامه من عدوٍّ وصديق"(11) .

كان من الممكن خلافاً للرأي السابق أن تكون بداوة العرب ونقاء حياتهم من ضجيج المدنية وازدحامها بالأفكار والمعتقدات الراسخة دافعاً للجزم بتأكيد ما حدث بعد ذلك،ليس من باب المفارقة ولكن من باب الاختيار الإلهى للنبي الكريم وأمته، فالذاكرة الخالية إلا من الشعر والسعي وراء الرزق وتمجيد الآباء وبعضٍ من مفردات الحضارات المجاورة للعرب جديرة بأن تبني ذاتها بما جاء به النبي الكريم، جديرة بأن تصنع تراكمات فكرية ودينية وحضارية في تراكم صحيح من أي لغطٍ أو أساطير، على عكس أجناس أخرى مبهورين بما أسَّسوه من حضارة مأخوذين بها غير مستعدين لقبول ما هو مغاير لها، كما حدث بين العرب في صحرائهم المديدة الأطراف.

وخلاصة القول أن المؤرخين والباحثين باتجاهاتهمالثلاثة التي أوردناها لم يقرؤوا فكرة بداوة العرب في سياقها الصحيح، كلٌّ كانت له دوافعه فيما انتهج وسلك من مسلك في هذا الإطار.

إن الحديث عن هذه المسألة في سياق السيرة النبوية لابد وأن يُوجَّه وجهته الصحيحة وفقا لما أنبأنا به التاريخ من ناحية ، ووفقاً لاستقراء الحكمة المنشودة من بعث رسول صلى الله عليه وسلم في جزيرة العرب

كمنطلقٍ لعالمية الدعوة الإسلامية. أرض الجزيرة العربية لم تكن مقطوعة الصلة بالحضارة، كما ذكرنا آنفًا وكما عُرف تاريخياً من وجود آثارٍ لحضارة قوم عاد وثمود، ولم تكن بداوة–وتحديداً– فيما يخص مكة والمدينة والمواطن القريبة من الحضر بالقدر الذي هال المؤرخين والباحثين، كما أنها –فكرة البداوة – وُظِّفت لأجل أهدافٍ في الواقع لا ترتبط بها ولا تؤدى إليها، فبرغم ما واجهه الرسول صلى الله عليه وسلم من عنتٍ وصعوبة في دعوة العرب، إلا أن معارضتهم – العرب – له لم تكن بسبب بداوتهم، أو على الأقل لم تكن السبب الوحيد، وإنما يمكن أن تكون تلك المعارضة راجعةً للحراك الاجتماعى والثقافى الذي شهدته مكة،حيث تبدت مآثر الرئاسة والتسيُّد والسلطة مغريةً للجميع وكان التنافس محتدماً بين بطون قريش ورءوس قبائل مكة وظهور نبيٍّ في هذا التوقيت، أثار قلقاً في نفوس العشائر المكية والقرشية من أن يُحْسَم التنافس لصالح بني هاشم عائلة النبي صلى الله عليه وسلم،وكلام أبى سفيان الأموى إلى بني هاشم حول هذا الأمر مأثرٌومتداول لدى كل متابعٍ لسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم حينما تحدث عن طبيعة التنافس بين بني أمية وبين بني هاشم حول الجوار والإطعام، واستنكر أن يكون نبياً من بني هاشم يأتي الإيمان به على كل ما حاول بنو أمية أن يقيموه من صروح الجاه والسيادة في مكة .

إن العرب بحالهم التي كانوا عليها قبيل البعثة المحمدية، من نقاء الطباع ومضاء العزيمة وسذاجة الفطرة، بالإضافة إلى الاقتراب من مقومات التحضر والسعى إلى حيازته جعل من دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى جانب كونها أمراً إلهياً،فهى ساهمت في التعجيل بحركة

التاريخ وصعود العرب بوصفهم حملة مشاعل النور الاسلامية،" فالأمة العربية كانت إلى ذلك العهد في القرن السادس الميلادي، بمنجاة تامة من الآثار السيئة المنتشرة في أمم الأرض المتمدنة الأخرى، وكان فيها من الصفات الإنسانية العالمية جميع ما يمكن أن يكون في أمة لم تصدمها المدنية بعواصفها، وكان العرب شجعاناً وقادتهم لا يقيمون وزناً للرهب والخوف، باسطى الأيدي، قائمين بالعهود، أحرار الفكر والنظر، يحبون الحرية والاستقلال ويؤثرونهما على كل شئ آخر، ولم تكن أعناقهم خاضعة لأمة أجنبية، وكانت عاطفة الاستماتة في الذود عن أعراضهم تجرى في عروقهم، وكانوا يعيشون عيشة ساذجة لا تعرف الترف والتنعم – بالقياس للأمم الأخرى – لا ريب أنه كان فيهم كثير من السيئات، إلا أنه ما خلا فيهم رسول من الله منذألفين وخمسمائة سنة، وما قام فيهم زعيم يعني بإصلاح أخلاقهم وتعليمهم المدنية والحضارة ، وكانت الجاهلية منتشرة فيهم لما عاشوا عيشة الحرية قروناً من الزمان، وقد بلغ تماديهم في هذه الجاهلية أنه لم يكن لأحد قِبَلٌ بتهذيبهم وإخراجهم من ظلمات البهيمية إلى نور الإنسانية، ولكنهم مع ذلك أهْلٌلأن يقيمواالدنيا"(12) .

## أزمة الوجود والمآل

العرب كما يقول الأستاذ مصطفى صادق الرافعي في كتابه" تاريخ آداب العرب" : "صحونهم البوادي وألحفتهم السماء........"(13).

مسافات طويلة ومساحات شاسعة من الصحراء والرمال والجبال والأودية، نهارٌ يكاد يحترق من وهج الشمس ،وليلٌ موحشٌ يفرض سطوته وغموضه على الإنسان الأعزل من أي أداةٍ تساعده في مواجهة هذا العالم

الموحش ، تنقضي الأيام ، يغيب الماء والكلأ، ثم تمطر السماء في دورة بقدر رتابتها، بقدر غموضها ووحشتها

فى هذا الخِضَمِّ تواترت على أذهان العرب أسئلة كبرى من قبيل، من أين يبدأ هذا العالم وإلى أين ينتهي؟ وما هو مصدر الإنسان؟ وما هي المحصلة من كل هذا؟

أسئلة حول الوجود والمنتهى، فرضتها طبيعة الجزيرة العربية بصحاريها ودروبها وجبالها وسمائها، عبَّرعن كل ذلك شعراء العرب قبل الاسلام وخطباؤهم وحكماؤهمالذين أذهلهم ذلك العالم اللانهائى الامتداد، وبرغم هذه التساؤلات إلا إن العرب لم يهتموا بغير حياتهم الدنيا ولم ينظروا فيما يمكن أن يكون عليه الإنسان بعد مماته، حدث ذلك وهم قريبو الصلة من الهنود والفرس والرومان بحكم الموقع وبحكم التجارة والأسفار ، لم يعيروا الصراع بين الخيروالشرفي بقاع الدنيا اهتماماً برغم ما واجهوه من أرواح تتبدَّى في الظهيرة وفى ظلام الليل، ولقد حسبوها أرواحاً تسكن جوف أصنامهم التي عبدوها لتقربهم من الله زلفى،لقد جعلهم انغماسهم في تجارتهم لا يميلون إلى ما وراء عقولهم وإدراكهم، ولأنهم مولعون بالخمر واللهو، أنكروا الجزاء والبعث، وحددوه بالحياة الدنيا، حسبما يلاقي الإنسان جزاءَعمله دون النظر إلى الحياة الآخرة بعد الممات(14) .

استراحت ذهنية العرب للأصنام وعبادتها بعيداً عن إرهاق الأسئلة الكبرى، فكانوا يسجدون لها، ويذلِّون أعناقهم الأبيَّة للأحجار التي اعتقدوا أنها تقضي حاجاتهم وتحقق أمانيهم (15)

عبد العرب الأصنام كما ذكرت المصادر قديماً وحديثاً، وأسهب الباحثون والمؤرخون في تفصيل هذه العبادة وأصولها، عبدوا الأصنام مع

إيمانهم بأن الله هو الرب الأعلى، كما ذكر القرآن الكريم
(
وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٦١﴾) "[العنكبوت :61].

لأجل ذلك كان " تبجيل العرب لهذه الأحجار يعني أنها رمزاً أو رموزاً للقداسة، إذ ربما اعتقدوا أن الآلهة التي كانوا يتخذونها ليست في أنفسها خالقةً لشيءٍ ولا مدبرةً لشئ، ولكنها واسطة بينهم وبين الإله الأعظم الذي خلق السموات والأرض، والذى يدبر الأمر كله، فهم لا يعبدون هذه الألهة لأنها تسطيع وحدها أن تنفعهم أو تضرَّهم،وإنما يعبدونها لتشفع لهم عند الله ولتقربهم إلى الله زلفى كما نقرأ في القرآن الكريم، فهم يشركون، ولا يجحدون الله، ولا يعبدونه وحده، وإنما يعبدون معه آلهة أخرى يتخذونها واسطةًبينهم وبينه"(16) .

وفق هذا التصور عبد العرب أوثانهم في مكة حول الكعبة، واعتبروا المنطقة المحيطة بمكة والكعبة أرضاً حراماً لا يجوز فيها القتال ،كما كان هناك الكُهّان الذين زعموا "معرفة المغيبات بما سُخِّر لهم من الجن الذين يكشفون لهم الغيب وما يأتي به الغد، والواحد منهم يسمى كاهناً،ولكل كاهن تابعه – كما يزعمون – وكانوا يفزعون إلى الكُهَّان لاستشارتهم في الأمور الخطيرة والمهمة كإعلان حرب أو قعودٍ عن نصرة أحلاف أو لكشفٍ عن فعل إنسانٍ أو تفسيرٍ لحلم، وقد يتنبئون لهم بحدوث غزوٍ أو بوقوع كارثةٍ ،وقد يقصدونهم للحكم في منافرة .

وتحتفظ كتب الأدب والتاريخ بطائفة من أقوالهم المسجوعة، وكانوا يعمدون فيها إلى الألفاظ الغريبة والمُوهِمَة ليتَّسع فيها عند السامعين التأويل "(17) .

أيضاً عرف العرب أشكالاً من التدين عند الفرس ذكرها المؤرخون باستفاضة كالمجوسية والمزدكية والزرادشتية غير أنها كانت ذات تأثير طفيف بالقياس على انتشار وثنية العرب، برغم ذلك فلم تكن جزيرة العرب بعيدة عن الأديان السماوية حيث عرفت اليهودية والمسيحية ووجدوا من يدينون بها ويعيشون بين ظهراني العرب ويطارحونهم التأثير والاحتكاك.

فقد كان هناك يهود اليمن الذين كانوا يمثلون حضوراً ملموساً بها، وكان هناك يهود واحات الحجاز، يثرب وخيبر وفدك ووادي القرى وتيماء، وكان لهم في يثرب ثلاث قبائل (بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة)، ونزل بيثرب بعدهم قبيلتان من اليمن هما الأوس والخزرج وفرضتا على اليهود سيادتها،وتعرَّب يهود يثرب، فكانت العربية لغتهم اليومية، ونظموا بها أشعاراً روتها كتب الأدب العربي،ومع ذلك كانوا يحتفظون بلغتهم العبرية القديمة، وكانوا يتدارسون بها التوراة والمشنة والزبور" مزامير داود" في دار ندوة لهم بيثرب تُسمَّى المدارس ،وعلى نحوٍ ما تعرَّب يهود يثرب تعرَّب يهود فدك وخيبر ووادى القرى وتيماء، ونظم الشعر فيها غير شاعر، وأهم شعرائهم السموأل بن عادياء صاحب حصن الأبلق بتيماء"(18) .

وبرغم تبشير اليهود برسول الله صلى الله عليه وسلم ومعرفتهم الوثيقة به وبعلامات ظهوره ، حيث تذكر الروايات أن حالات التناحر بين العرب

وبين اليهود جعلت رجالاً من اليهود يتوعدون العرب بأنهم سيقتلونهم بعد مقدم نبيآخر الزمان (19)

برغم كل ذلك سارع اليهود بمناوئة رسول الله صلى الله عليه وسلم بمجرد ظهوره،مرة بمحاجَّتهم له جدلاً وسفسطة، أو من خلال تعاونهم مع كفار مكة بعد هجرته صلى الله عليه وسلم إلى مكة وخيانتهم للميثاق بينهم وبين الرسول عليه الصلاة والسلام،أيضاً عرف العرب أطياف المذاهب المسيحية بعد هجرة أصحاب هذه المذاهب من سوريا وفلسطين والعراق، وعرفوها من خلال تجارتهم وأسفارهم ولقاءاتهم بالرهبان في رحلاتهم التجارية المختلفة، وقد بلغ تأثير المسيحية في العرب إلى أن "عُرف منهم الرهبان كحنظلة الطائي الذي فارق قومه ونسك وبنى ديراًبالفرب من شاطئ،ويُعرف بدير حنظلة، وترهَّب فيه حتى مات، ويذكرون أن قس بن ساعدة الإيادىكان يتَقفَّرُ القفار، ولا تكنُّه دار ،يحتسي بعض الطعام ويأنس بالوحوش والهوام.....ويقولون أن أمية بن أبى الصلت كان قد نظر في الكتب وقرأها ولبس المسوح تعبداً، ويذكرون أن عدي بن زيد نصح النعمان ملك الحيرة حتى حبَّب إليه النصرانية، ثم وضع تاجه، وخلع أطمارة، ولبس أمساحه فلزما عبادة الله في الجبال حتى مات النعمان"(20)، وكان هناك ورقة بن نوفل الذي يرجِّح البعض أنه اعتنق المسيحية في إحدى رحلاته و"انبرى لإخبار قومه عما اهتدى إليه، وراح يحدثهم عن "إلهٍ لايسكن في هياكل مصنوعة بالأيدي ولا يُخْدمُ بأيادي الناس لأنه لا يحتاج إلى شئ ، إذ هو يعطى الجميع حياةً ونفساً وكلَّ شيء.....

لأنه هو رب السماء والأرض وراح ورقة يقدم لقومه في مكة نصائح المحبه المسيحية وسلامها (21)، وهناك شخصية أخرى في جزيرة العرب قبل الإسلام عبَّرت عن أزمة الوجود والمآل وعن الحيرة الشديدة إزاء حقيقة الحياة التي يعيشها الناس، ومدى صوابهم من ضلالهم،إنه زيد بن عمرو الذي اعتزل الأوثان وحرَّم على نفسه الذبائح التي تَقرَّب أهله بها إلى تلك الاصنام الجامدة ، ودعاهم-أهلهإلى أن يتوقفوا عن وأدبناتهم،بل عرض عليهم أن يكفل من تنجوا من تلك الفعله الشنعاء،وأعلن أنه على الحنيفية دين إبراهيم الخليل عليه السلام،وكان يخطب قريشاً عند الكعبة ويقول :"يا معشر قريش، والذى نفس زيد بن عمروٍبيده، ما أصبح منكم أحدٌ على دين إبراهيم غيرى "واسترسل في دعوة الناس إلى فضائل الأعمال وتَرْك الربا والإقلاع عن الظلم والعزوف عن عبادة الأصنام،مُسفِّهاً ما يقومون به من طقوس الجهالة والكفر خطابةً وشعراً في قصائد مطولة تحكى قصص موسى وفرعون، ويونس والحوت، وكل من بَشَّر بحقٍّ وعدل واصطدم بالجبارين العتاة من قبل، لكن زيداً لم يسلم من أذى قريش الذين أوغروا صدر عمه الخطاب عليه وهو منهم ومثلهم في الإيسار والربا والانغماس في الشهوات ، فما كان منه – الخطاب – إلا أن أمعن في إيذائه ودفعه إلى اعتزال هذه الحياة بعيداً الى جبل حراء يتأمل بالليل في الكون وخالقه بحثاً عن حقيقةٍ يهتدي إليها وبالنهار يعود لدعوة الناس للخروج في تيهالغى والضلال،فازداد إيذاء قريشٍ له وتضييقهم عليه ،فخرج من الحجاز طالباً دين إبراهيم من الرهبان في الأديرة، والأحبار في سائر أنحاء الجزيرة حتى وصل الموصل بحثاً عن حنفية إبراهيم التي لم يرضِ عنها بديلاً في المسيحية واليهودية، وأصرَّ على ما يطلبه برغم ما قاله

الأحبار له عن أن أحداً لم يعد يحمل دين إبراهيم فارتاد البلاد متنقلاً بين أبواب الأديرة وقباب الكنائس وأعمدة المعابد، وتعاليم كهنة المجوس وخالط أتباع زرادشت دون جدوى، دون أي حقيقة تشفى صدره وتنقيه (22)، أضنت السنون جسد زيد وهو يبحث عن مجهولٍ يعرف أنَّ راحة قلبه واطمئنان نفسه فيه، إلى أن قتله اللصوص وهو يتجشم عذابات رحلته الشاقة والمريرة، تعب زيدٌ حتى الموت وارتاحت قريشٌ وهدأت نفوس رجالها بموته، وبكاه رفقاؤه في البحث عن الحقيقة، واستسلمت مكة راضيةً مرة أخرى للظلم والظلام (23)، رحل زيد وصمت غيره إلى أن رحلوا أيضاً، وبقيت الحقيقة تنتظر من يزيل حجبها ويعلنها للناس جليَّةً وضَّاءة ..... في خضم هذه الحيرة وتأزُّم الإنسان في لجاج الدنيا بصحاريها الواسعة المخيفة وسمائها المدلهمة، وسط كل ذلك جاء محمد صلى الله عليه وسلم، نسبه خيارٌ من خيار فكانت عراقته من أساس قدره ومنزلته ، في قومٍ زانوا أنفسهم بالأحساب والأنساب، لم يكن غنيَّاً، فينسدُّ قلبه تحت وطأة الجشع وبأس المال، لم يكن مُدلَّلاً أعزلاً من قوة الإرادة، ولم يكن بالمنبوذين أهله، بل كان عزيز النفس طامحاً آملاً في كل خيرٍ وحق، امتلك المعرفة بضروب العيش في الحضر والبدو، صبغته الصحراء بالعافية وصحة البدن، وصقلته المدنية بتجارتها وأعمالها، وأحلافها وعهودها، استخلص كل أدوات الحياة العربية، فلم يجهلها ولم يسقط في لُجَّتها، فكان أصلح رجلٍ من أصلح بيت في أصلح زمانٍ لرسالة النجاة المرقوبة ، إنه محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم (24) .

لقد كان صلى الله عليه وسلم في معرفته العميقة بما أحاط به وبأهله من العرب وفى شخصه وفى نفسه أجدر بأن يتأزَّم ضميره وتغترب روحه،

فيندفع إلى العزلة الجبلية مُتلمِّساً صوتَ الحقيقة في امتداد البرية وفى السماء بكواكبها وفى أعماق نفسه النقية خالصة الفطرة التي امتلكت بما جُبِلَت عليه وما اكتسبته من صفاءٍ ونقاء أن تُسْمعه صلى الله عليه وسلم ما صمت عنه العالم لغيره من أسرارٍ ومكنونات (25).

اقترب محمد صلى الله عليه وسلم بنظره الثاقب، ونفسه التواقة إلى الحقيقة، فأدرك من أعماقه زيف الأصنام المصقولة بالزيت والدهن مسْتقْطبةً الذباب والحشرات دونما أدنى مقاومة، أدرك بُعْد الحقيقة عن جدليَّات النصارى وسفسطات اليهود آنذاك ، ولم تكن هذه الحيرة لديه صلى الله عليه وسلم إلا مقدمة لرحلةٍ طويلة ستبدأ مع مهبط الوحى عليه في غار حراء، حيث إن كلمة الله التي أُمِر أن يحملها ابتداءً إلى عرب الجزيرة بدت وكأنها مستحيل لا يقترب من التحقق في ظلِّ أفكارٍ مشوَّشة عن التوحيد عند العرب الذين كان قلة منهم يعرفون معناه، وعند اليهود الذين استغرقوا أزماناً حتى يؤمنوا أنَّ يهوه هو الإله الواحد، وحتى عام 550ق م تاريخ ظهور أشعياء الثاني إبَّان نفي اليهود في بابل (26) .

جاء محمد صلى الله عليه وسلم هذا العالم الذي تسبح فيه الرؤى والمعتقدات المتعارضة والغامضة فيما تحمله من مضمون، والحائرة في صياغة جوهر روحي يخلِّص الإنسان من قلقه الوجودى الرهيب، فما كان منه صلى الله عليه وسلم إلا أن استقبل الرسالة الخاتمة التي هُيِّأ لها بمفرده داعياً إلى التوحيد الخالص، مُوقناً بصحة ما يدعو إليه وموقناً بصعوبة ما يضطلع به بين الوثنيين والنصارى واليهود ذوي الموروث المتراكم والمتزاحم لديهم عبر قرونٍ من الخلط بين ما تستوجبه الحقيقة

المطلقة من تجرُّدٍ وصفاء نفس وبين العناد والكبرياء والجهل الدنيوي الراسخ والمتجذِّر.

في خِضَمِّ هذا كلِّه ومع توقُّع استحالة نجاح رسالة ودعوة محمد صلى الله عليه وسلم كانت المعجزة وانطلق هدْيُ محمد صلى الله عليه وسلم مُعْلناً تحرُّر العقل البشرى ورفع الوصاية عنه بعد أن استبان الطريق ووعي حقيقة وجوده ومآله.

## هوامش

(1) أحمد أمين : فجر الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،طبعة مكتبة الأسرة ، القاهرة ، 2000م ص11 .

(2) ابن عبد ربه : العقد الفريد 86/2، نفلاً عن أحمد أمين : فجر الإسلام، مرجع سابق ، ص51

(3) ابن خلدون : المقدمة ج 1ص: 106،127،337،478،نقلاً عن أحمد أمين : فجرالإسلام ، مرجع سابق ، ص 54

(4) راجعفي هذا الأمر : طلعت رضوان في كتابه " العسكر في جبة الشيوخ ، الأصولية الإسلامية قبل وبعد ثورة يوليو 1952م ، مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان ، القاهرة الطبعة الأولى 2003م

حيث انتشرت هذه الفكرة بين صفحات الكتاب بلا استثناء في هجومٍ محموم على الثقافة العربية والإسلامية بوعيٍ وبغير وعى

(5) يردد ذلك الرأى د. جابر عصفور في مقالاتٍ عديدة جمعها في كتاب " هوامش على دفتر التنوير " الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة ،الطبعة الأولى 2000م .

(6) الهمذانى : الوشى المرقوم ، عن أحمد أمين : فجر الإسلام، مرجع سابق، ص 48، 49 .

(7) ابن خلدون : المقدمة ج2 ص 15، عن أحمد أمين: فجر الإسلام ، مرجع سابق ص54.

(8) د. رضوان السيد: الأمة والجماعة والسلطة، دراسات في الفكر السياسى العربى والإسلامى، دار اقرأ ، بيروت ، الطبعة الأولى 1984م ص 97.

(9) المرجع السابق، ص 98،99.

(10) عبد الكريم الخطيب: النبى محمد صلى الله عليه وسلم، دار الفكر العربى، القاهرة ، الطبغة الثانية،1976م ، ص 164.

(11)المرجع السابق، ص 165 .

(12) أبو الأعلى المودوى : مبادئ الإسلام ، الدار السعودية للنشر، جدة

1987م، ص 55- 56 .

(13) مصطفى صادق الرافعي :في مقدمة كتابه " تاريخ آداب العرب" .

(14) د. محمد حسين هيكل: حياة محمد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مهرجان القراءة للجميع ، القاهرة 1996م ، ص 155.

(15) أبو الأعلى المودودي: مبادئ الإسلام، مرجع سابق،ص 59.

(16) د. طه حسين: مرآة الإسلام ، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية 1998م، ص 13.

(17) د. محمد حسين هيكل: حياة محمد، مرجع سابق، ص 40.

(18) أحمد أمين: فجر الإسلام، مرجع سابق، ص 42.

(19) كارين أرمسترونج: سيرة النبي محمد، ترجمة محمد عناني، دار سطور ،القاهرة الطبعة الأولى 1998م، ص 10.

(20) أحمد أمين: فجرالإسلام، مرجع سابق، ص 45- 46.

(21)عبد الرحمن الشرقاوي: محمد رسول الحريَّة، دار الهلال،سلسلة كتب الهلال،القاهرة 2000م،ص 35.

(22) المرجع السابق، ص 46.

(23) نفسه، ص 37،38.

(24) عباس محمود العقاد: عبقرية محمد، دار الهلال، القاهرة، الطبعةالثانية،1952م، ص 24 .

(25) أميل درمنغم: الشخصية المحمدية، السيرة والمسيرة، ترجمة عادل زعيتر، دار شعاع للنشر، القاهرة ، الطبعة الثالثة، 2005م، ص 72.

(26) المرجع السابق، ص 73.